دولة الإمارات العربية المتحدة

جامعة الوصل - دبي

كتاب

المؤتمر الدولي الثالث للدراسات العليا والبحث العلمي
الموسوم بـ:

آفاق التفكير الناقد في العلوم الإنسانية
رؤيّة نقديّة بين الحداثة والتقليد

15 - 16 نوفمبر 2023 م

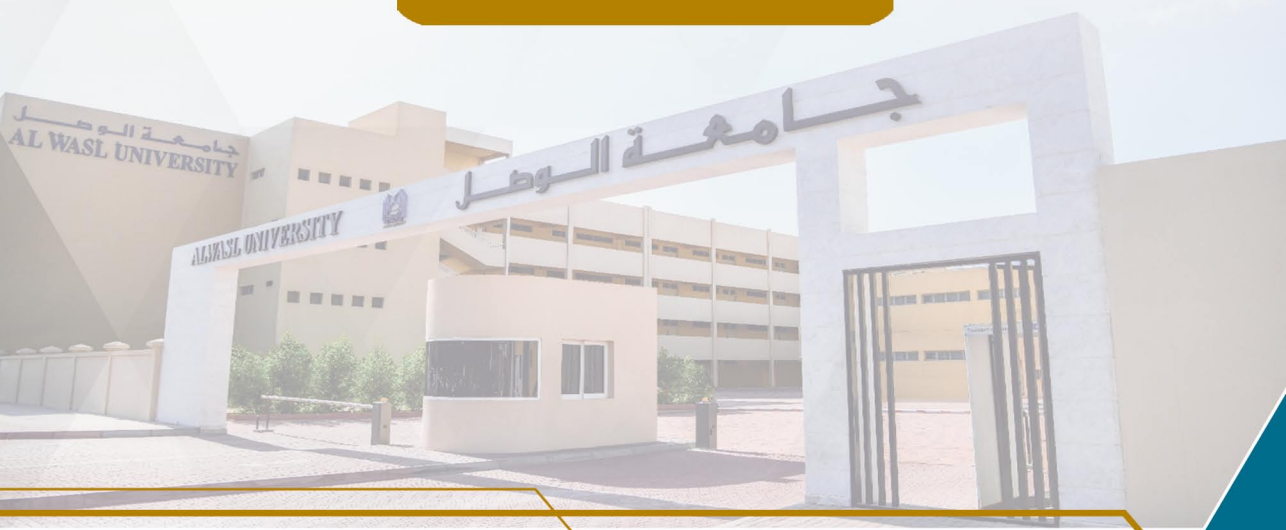

الإمارات العربية المتحدة

جامعة الوصل - دبي

كتاب

المؤتمر الدولي الثالث

للدراسات العليا والبحث العلمي

الموسوم بـ

آفاق التفكير الناقد في العلوم الإنسانية

رؤيّة نقديّة بين الحداثة والتقليد

15 - 16 نوفمبر 2023 م

لجنة نشر الكتاب

إشراف:

أ. د. خالد توكال

نائب مدير الجامعة لشؤون البحث العلمي

رئيس لجنة النشر:

د. عبد اللّه طاهر الحذيفي

الأعضاء:

1- أ. د. سيد عبد الخالق إسماعيل

2- د. بهاء الدين شهوان

3- د. محمد سعيد القللي

4- د. هدير عبد اللّه كامل

نؤمن في جامعة الوصل بأنّ البحث العلميّ يمثِّل ركيـزةً أساسية من ركائز التعليم العالي، لأنّه من الإنجاز ات العلمية التي تعتمدُ على استخدام الأسس المنهجية الرصينة، المؤدية إلى اكتشافِ الظواهر ودراستها، والتصدّي للمشكلات والتحديات، ومحاولة الوصول إلى فهم الحقائق، سعيًا إلى إنتاج معرفة جديدة، تقود إلى التطوير نحو الأفضل، بقصد الإسهام في بناء مقومات التنمية الوطنية وخدمة الإنسانية بشكل عام.

أ. د. محمد أحمد عبد الرحمن

مدير الجامعة

كلمة الرئيس التنفيذي للمؤتمر
الدكتور إبراهيم ربابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الرسول الأمين، وبعد

لقد جاء المؤتمر الدوليّ الثالث للدراسات العليا والبحث العلميّ الموسوم بـ **«آفاق التفكير الناقد في العلوم الإنسانية – رؤية نقدية بين الحداثة والتقليد»** وفق رؤية علمية سعت إلى تحقيق استثمار علميّ دقيق لتمكين العلاقة بين العلوم الإنسانية ومنهجيات التفكير الناقد؛ فقد مثّل القرن الحادي والعشرين تميّزًا واضحًا في إعادة الاعتبار لتمكين العلاقة المنطقية بين اللغة والتفكير الناقد، وقد جاء ذلك طبق منهج علميّ قوامه أنّ اللغة هي التفكير ذاته، ولتأسيس ذلك وفق رؤية علمية صارمة فقد تأسست قراءات علمية جديدة تعلي من إجراءات التفكير الناقد في كل المسائل المعرفية في العلوم الإنسانيّة.

أمّا اليوم فإنّ علوم الذكاء الاصطناعي والتكنولوجيا قد فتحت الباب على مصراعيه وأدخلت ذاتها في صميم التفكير الناقد في البحث اللغوي، إذ إنّ المعالجات الآلية للغة (بوصفها وجه الورقة الآخر من التفكير) تعدّ منطلقًا رئيسًا لأي عمليات نقدية وبحثية معاصرة، ولم يعد الفصل بين اللغة والتفكير والتكنولوجيا مقبولًا وفق تصوّرات الأجيال المعاصرة، وقبل ذلك كانت مثل هذه العلاقة مسرحًا لجدل لم يقد إلى نتائج صحيحة، فقد وصلت الأبحاث العلمية المعاصرة إلى خلاصة مفادها أنّ العلاقة بين اللغة والتفكير والذكاء الاصطناعي علاقة وثيقة لا يمكن إنكارها، إذ إن التفكير الناقد محركٌ رئيس لعمليات إنتاج اللغة وتنظيمها وترتيبها، وخير دليل على ذلك من أنّ الخطاب الاتصالي يقوم أساسًا على عمليات تفكير ناقدة عميقة، فنحن عندما نتخاطب مع الآخرين نفكّر معهم ونقبل نقدهم، ونعود فنفكّر في خطابنا وننقده، إنّ عمليات التفكير الناقد المستمرّة هذه تقود إلى تنقية الخطاب الاتصالي والارتقاء به إلى أعلى مستويات الرقيّ الإنساني.

إنّ المؤتمر الدولي العلمي **«آفاق التفكير الناقد في العلوم الإنسانية – رؤية نقدية بين الحداثة والتقليد»** مثّل محاولة علمية جادة سعت إلى تقديم مقاربات جديدة لفهم العلاقة بين التفكير الناقد والعلوم الإنسانية، وقد ورد إلى هذا المؤتمر واحد وتسعون ملخصا بحثيا من إجمالي مائة وستة تم التقدم بها، وانتهى إلى خمسة وثلاثون بحثا علميا محكما شاركت في المؤتمر، من إجمالي ستة وخمسين بحثًا، من أربع عشرة دولة منها الإمارات والجزائر والمغرب وتونس ومصر والعراق والأردن وسلطنة عمان والكويت.

وجاء ذلك وفق محاور رئيسة هي:

1. ضوابط وروافد التفكير الناقد في العلوم الإنسانية: منطلقاته النظرية وتطبيقاته.
2. النقد بين توظيف الذكاء الاصطناعي وتنوع مصادر المعرفة.
3. أصول الاجتهاد ونقد الاستدلالات في التراث الإنساني.
4. التفكير الناقد في العملية التعليمية.
5. التفكير الناقد وعلوم المكتبات والمعلومات.

وقد خلصت مقاربات المؤتمر وأبحاثه إلى نتائج علميّة تمثّلت في الآتي:

- تضمين مهارات التفكير الناقد في المناهج التعليمية فيما قبل الجامعة باعتبارها أساسًا للعملية التعليمية.
- تشجيع البحوث التي تعنى بالتفكير الناقد في الموروث الثقافي العربي.
- استثمار الذكاء الاصطناعي في المسائل الفقهية وخدمة السنة النبوية.
- ابتكار أدوات قياس التفكير الناقد في العلوم الإنسانية لرصد فرص التحسين.
- تجديد الطرائق والوسائل التعليمية وأساليب التقويم.
- إعداد المعلمين عن طريق دورات متخصصة لاستثمار قدراتهم في تنمية التفكير الناقد عند طلابهم.
- استثمار مهارات التفكير الناقد في النقد اللغوي المعاصر.
- استثمار الذكاء الاصطناعي في تحليل وتقييم وتوظيف البنى المعرفة في العلوم الإنسانية.
- تدارس الأصول المنهجيّة الإجرائيّة التي يقوم عليها التفكير النّاقد في العلوم الإنسانية.
- تحديث الناقد التربوي ماديا ومعنويا.

إنّ هذه النتائج العلمية الدقيقة تقود إلى فتح مجالات جديدة في إجراء البحث المعرفيّ لتمكين العلاقة بين التفكير الناقد والعلوم الإنسانيّة، وهو ما نأمله من خلال جهود العلماء والباحثين في أن يستثمروا معطيات التكنولوجيا المعاصرة لرفد العلوم الإنسانية بمسارات جديدة من أنماط التفكير الناقد والبحث العلمي.

والحمد لله رب العالمين.

الخلفياتُ الإبستمولوجيّة للمناهج النقديّة ودورها الثقافيّ في إثراءِ العلومِ الإنسانيّةِ قديمًا وحديثًا

د. قردان ميلود
جامعة تيسمسيلت – الجزائر

ملخص

تأخذُ كلُ معرفةٍ إنسانيّةٍ محلّها ومكانها بسنّة التدافع الثقافية التي تُوجدها نشاطات المعارف الفلسفية الحضارية، وتحققها إجرائيات المناهج النقدية المختلفة قديمها وحديثها.

وهذه الخلفياتُ تؤكد على أنّ النقد عملية تراكمية معقدة تتجاوز الانطباعية والذوقية إلى معارف تقوم على أسس فكرية فلسفية وإيديولوجية وثقافية؛ تأسست عبر عصور طويلة من التحول، والتطور لتحقيق الموقف الوجودي الشامل. والرجوع إلى تقصي الخلفيات والمرجعيات الإبستيمية التي أقامت النقد وفرضت وجوده، وأمدته بالقوة التأثرية ضرورة مؤكدة تفسر سر تأثير هذا النشاط الإنسانيّ في نظريات العلوم الإنسانية التي تحولت مع مرور الزمن إلى سرديات كبرى علقت بفكر الإنسان ووجدانه، ولا يمكن أن تزحزح من مربعها الحضاري إلا بنشاط نقدي جديد يتسلح بترسانة الخلفيات الإبستمولوجية الفلسفية التي تهدمه وتبني في أعقابه صرحا ثقافيا يواكب سنة التدافع ويستجيب لسنة التطور والتحول السمة المتجددة لنظام المعرفة الإنسانية.

ومنه نستمد شرعية طرح الإشكالية التي تتساءل إلى أي مدى ساهمت الخلفيات المرجعية الفلسفية في نظريات العلوم الإنسانية المختلفة بخاصة التاريخ والفن والأدب؟

الكلمات المفتاحية: (الخلفية المعرفية، نظرية المعرفة، العلوم الإنسانية، المقاربات النقدية، المقاربات الثقافية).

Abstract

Any human knowledge is placed according to the cultural scramble course, created by activities of civilizational philosophical knowledge and implemented by different old and contemporary critical approaches' processing.

Those backgrounds state that the criticism is a complicated and cumulative process going over impressionism and gustatory aspects to a knowledge relying on cultural, ideological, philosophical and intellectual basis; set up through long ages of transformation and development for concreting the complete existential position. Referring to the epistemological backgrounds and references which established and imposed the criticism giving it an impressionistic potential, is a proven need for interpreting the secret of this human activity's impact on human sciences' theories which have been transformed to metanarratives over time, etched in the human's thought and conscience, and they only can be removed from their civilizational frame by a new critical activity armed with an arsenal of philosophicaland epistemological backgrounds, that demolishes that frame and builds in the aftermath a cultural foundation going with the scramble course, and responding to the updated aspect of human knowledge system; development and transformation.

Thus, we deduce the legitimacy of bringing up the following issue: What is the extent of participation of philosophical referential backgrounds in energizing the diverse human sciences' theories of history, art and literature?

Keywords: (Knowledge background, Epistemology, human sciences, critical approaches, cultural approaches).

مقدمة

البحث في المعارف الإنسانية تراث إنساني كان رفيقا ملازما لتساؤلات التصور والهوية التي أقلقت أنطولوجيا هذا الكائن المتميز المتسلح بالعقل. فمنذ أن وجد الإنسان وهو يسعى باستمرار ويفكر بقلقل وإلحاح ليجيب ويفسر منطقيا أسرار وجوده وتجلياته في علاقاته بالمجتمع وبغيره من الكائنات وبالكون الذي يحيط به وبالقوى الميتافزيقية التي استعصت على الفهم والتفسير. ونجد في كل الثقافات القائمة والبائدة على حد سواء هذه التساؤلات الأنطولوجية عن أصل العلوم والمعارف وكيف وصلت إلينا؟ ولماذا يحتاج الناس إليها؟ وما علاقتها بالأشياء التي تبحث فيها؟ وما هو نظامها المنطقي الذي نكتسبه بها؟ وما هي الآليات الإجرائية لفهمها؟ وكيف استطاعت الخلفيات المعرفية الفلسفية وغيرها دمنكتها بخاصة العلوم الإنسانية كالفن والتاريخ والأدب وغيرهم ممن يستعصي على المنطق والتصورات المخبرية ذات النتائج القطعية الدلالة؟ ويتبعها كم هائل من التساؤلات التي لا يمكن للإنسان أن يعيش معرفيا دون أن يجد لها إجابات مقنعة أو تُوهم الإقناع. ومن جهة مقابلة تركت لنا الحضارات الإنسانية المتعاقبة بشكل تراكمي منسق ومتواصل تراثا ثرا من المعارف والمفاهيم التي لولاها ما أمكننا جمع التصورات لفهم مكنون هذه المعارف والكشف عن خلفياتها الإبستيمية بسبب ضياع الموقف الإبستيمولوجي التاريخي الذي يرسم بدقة معالم ما يجمع بين المعارف الإنسانية وخلفياتها الفلسفية أو النفسية؛ لأن الفلسفة كخلفية معرفية تؤسس لكل العلوم التجريبية منها والإنسانية، فكانط يميز بين مفهومين للفلسفة في علاقتها بباقي المعارف الأول مفهوم مدرسي والثاني مفهوم كوني؛ حسب المفهوم الأول: ليست الفلسفة سوى نسق للمعرفة. وهو نسق مطلوب لذاته، دون هدف آخر غير تلك الوحدة النسقية للعلم، وبالتالي فغايته تحقيق الكمال المنطقي للمعرفة، وهذا لأن النسق وحدة جزئية تعبر عن وحدة معرفية كبرى لها أنساق متعددة متداخلة ومتشابكة لكل أهميته في بلورة المعنى والدلالة العامة. أما بحسب المفهوم الكوني فالفلسفة هي العلم بالعلاقات بين جميع المعارف والغايات الأساسية للعقل الإنساني؛ والفيلسوف حسب هذا المعنى، ليس فنان العقل بل المشرع له.[1] أي أن الفلسفة إبستمولوجيا هي البحث في أصل المعرفة الإنسانية وثباتها ونطاقها ثم التأصيل لها بما يتوافق وقواعدها النظرية والعملية.

1- ينظر، عماد الحسناوي، التعليم الفلسفي عند كانط، الحوار المتمدن مجلة إلكترونية، العدد -5781 2018، المقال الرابع.

ويُعد البحث في معارف العلوم الإنسانية كالفن والتاريخ والأدب على سبيل المثال محاولة محفوفة بالمطبات والزلل لما تحتويه من إشكالات تصورية مفاهمية ومنهجية. على اعتبار أن هذه المعارف وخلفياتها تنطلق من سياق معرفي مختلف عن السياق الذي وصلت إليه المعارف اليوم فهي تكونت وقامت على سوقها مستمدة وجودها من العصر الذي ظهرت فيه فتية ثم كبرت وقوي عضدها؛ وفلاسفة كل حقبة زمنية يدونون مداركهم ويؤصلون لمعرفهم انطلاقًا من وجهة معارف عصرهم بمكوناته الإبستمية فهذه القراءة لا يمكن أن تخرج على نمط تفكيرنا، وتصورنا الذي فرضه عصر النهضة الحديثة وما تلاه من تصورات الحداثة وما بعد الحداثة.

والعلوم الإنسانية لها أهمية كبيرة في التاريخ الإنساني، لأنها تُمثل المعرفة الإبستيمية، التي تهتم بكل ما يتعلق بالإنسان، من توجهاتٍ فكرية، ومعتقدات دينية وتجارب حياتية، وخبرات مكتسبة ومتوارثة، وثقافة مادية وغير مادية، وتواصل بشري، وإنجازات مختلفة، وغيرها من النشاطات التي يتكلفها الإنسان في مسيرته التصورية لفهم الحياة والكون وأنظمته التي جبل عليها، بالإضافة لفهم طبيعة علاقته مع الآخرين، ولا يخفى أن هذا الفهم يحتاج إلى وسائط معرفية هي كذلك من صميم العلوم الإنسانية في مقدمتها الفلسفة أم المعارف كلها الإنسانية والطبيعية، تصنف الفلسفة على رأس المدارك الإبستيمولوجية، باعتبار أنها تلح بالأسئلة على مختلف نشاطات الحياة، بقصد فهمها، يضاف إلى ذلك، أن الفلسفة تتسم بالمرونة في تناولهما للقضايا المختلفة في العالم بخلاف العلوم العقلانية.

الخلفيات المعرفية في العلوم الإنسانية تجاوز للموضوعية وتقصٍّ للنجاعة الإجرائية:

الموضوعية مفهوم يرافق مجموعة من المفاهيم المعرفية ذات الدلالات العامة والخاصة؛ العامة تسع كل ما يمت إلى حقل دلالي معين من مقولات، كمصاحبة اللغة كظاهرة إنسانية لعلم النفس اللغوي وفلسفة اللغة... والخاصة ما يميز اللغة من قواعد صرفية ونحوية وصوتية. كما تمتزج وتتداخل معها معارف خارجة عن نطاق الخاص والعام منها ما هي إجرائية وأخرى تصورية متعلقة بالخلفيات الفلسفية المترعة بالأفكار التي تستدعي معها الانتماءات التصورية وقيمية، والتي غالبا ما تدور في فلك الرؤى الغربية للحياة والكون؛ والمهم في هذا أن الوعي بها يكشف عن كذبة القول بالموضوعية ويؤكد «لا موضوعيتها».

وعند البحث والحديث عن الخلفيات الفلسفية للعلوم الإنسانية يتكشف لنا استحالة

تثبيت الموضوعية لأن مجالها قيمي مرتبط بعادات الإنسان ومعتقداته ومشاعره وعلاقاته مع محيطه الإنساني الذي يصعب الحكم عليه بالصدق أو الكذب، وهذا يؤدي إلى عسر التزام المشتغلين بها بمبدأ الحياد الموضوعي على صورة ما نجده في العلوم الطبيعية «والصواب أن تحصيل تمام الموضوعية غير ممكن، وكل ما تفعله هذه الممارسة العقلانية هو أنها تستبدل بالمعاني الأخلاقية الدينية معاني وقيم أخرى غير دينية وغير أخلاقية بما فيها الموضوعية نفسها.»[1]

ومن الصعوبة بمكان أن نتحدث عن العلوم الإنسانية كإنتاج فكري ومعرفي في مرحلة زمنية معينة بوصفها منجزا مكتملا موضوعيا، لتعصي القول بها إلا إذا كنا ندرس تاريخ هذه العلوم والمعارف والفنون، وتقصي مراحل نشأتها وتطورها، وهو ما يضطلع به – في العادة- التاريخ العلوم الإنسانية بخاصة تلك التي رافقت تطور الحياة اليومية للإنسان ككائن يفكر ليعيش بعيدا عن الغريزة فالجوع مثلا دفعه إلى الصيد كأي كائن لكن التفكير هو ما هداه إلى الطهي، وهنا عندما نتجاوز التأريخ بموضوعيته نستدعي الخلفيات الإبستيمية في مقدمتها المرجعيات الفلسفية لتأصل لتأريخ الحياة الفكرية والاجتماعيّة وما رافقها من مذاهب دينية وأدبية ونقدية وثقافية، وبالأخص ما تعلق منها بإدراك الوجود الحياتي الذي فرضه الإنسان على أخيه الإنسان كالقوانين والتأويلات السلوكية وفهم الرغبات وغيرها. ووظيفة الفلسفة فهم كل هذه المعارف الإنسانية من خلال تتبع مسارات تشكلها وتحولاتها، و علاقتها بعضها ببعض، ومدى تأثير بعضها في بعض ووظيفتها بالإضافة إلى تقييمها ومحاولة استرجاعها استرجاعا نقديا يحتضن الجيد منها ويستبعد السلبي فيها، ويقترح البديل الأمثل لها كل هذا بعيدا عن الموضوعية، بتقصي الآليات الإجرائية ونقول جيدا الآليات الإجرائية؛ لأن استبعادها يعبر عن فقدان التوازن بين التكامل المعرفي الذي يطبع العلاقات بين مجموع المعارف التي تسمى بالعلوم الإنسانية، منه تمثيلا فهم الإبداع الذي قد لا نجد له تعليلا فلسفيا إلا من خلال إجراءاته المادية التي تختلف من إنسان إلى آخر ومن عصر إلى غيره «الإبداع يعني أن ليس في الغرب ولا في التراث حلول جاهزة، لأن كل الحلول هي ثمرة مشاكل وظروف وأوضاع وموازين قوى اجتماعيّة و تاريخية، وما يصلح لجماعة أو لعصر لا يصلح لغيرهما، وأن لكل زمان حلوله التي يستطيع العقل أن يخترعها. وأن بالإمكان دائما إيجاد حلول جديدة وأصيلة، ولهذا فإن الإبداع يفترض الإيمان بالعقل

1- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق - مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000 ص 67.

المبدع الذي لا يشكل ترددا للحاضر أو الماضي، والذي يقوم خارجهما.»[1]

ونحن إذ نستبعد الموضوعية ونقدم الإجراء نحاول أن نرد الاعتبار للممارسة العملية بوصفها الإطار المرجعي للممارسة العلمية والتنظيرية في كل المعارف حتى الإنسانية منها وهذا ما تحاول الفلسفة إثباته دائما خصوصا عندما تطرح المسائل العلمية؛ لكنها تعجز عن فهم المحيط الخارجي الذي يجزم بصحة الدليل العلمي نظريا، ولكن إجرائيا فلا يمكن الشك فيه «إن المشكلات التي تواجه العلماء ليست فقط تجريبية، وإنما هناك مشكلات مفاهيمية بحتة لا علاقة لها بالتجريب، لكن حلّها يساوي في الأهمية تلك التجريبية أيضا، فمثلا كان أكثر ما لفت انتباه لوك، وبيركلي، وليبنتز تجاه نظرية نيوتن ليس مدى دقة نتائجها التجريبية، لكن ظهور بعض الغموض المفاهيمي الخاص بالنظرية، فكانت تساؤلاتهم هي: ما الفضاء المستقل؟ وما هو الزمن المطلق؟ وكيف أمكن تصور التأثير عن بعد بين الأجسام عبر الجاذبية؟ وما هي تلك القوة التي يقصدها نيوتن؟»[2]

لقد سعت الفلسفة عبر تبنيها للمعرفة البحث في كل الاتجاهات فهي لا تؤمن بالاتجاه النظري الخالص كأدوات العقلانية المنقولة، إنما لها تعلق راسخ بـ «بعمق الحقيقة المعرفية» ذلك أنها تغوص في أعمق من ذلك لتطوف في كل ما يتصل بالمعارف خصوصا محيط العلوم تأخذ ما جاء به العقل لكنها لا تفصله عن النفس تؤمن بالمحسوس لكنها لا تهمل غير المحسوس وتسأل عن علاقتهما ببعضهما البعض فما كان ما كان ليكون لولا التعاون الذي حدث بينهما، نعم قد لا تدرك الموضوعية العلمية ذلك لكن الإجراء يشي به وكلما حاول الفصل بينهما جانب الصواب، «لقد أدى إغفال الجانب العملي أو التطبيقي وربطه بالإطار النظري في جل أبحاثنا إلى رفض كثير من النتاج الفكري والثقافي وتسطيحه، يتجلى ذلك في تعاملنا مع الشعر الجاهلي كما طرحه طه حسين ومن تبعه، وكما تجلى في نظرة المستشرقين وكثير من الذين ساروا على منهجهم في تبعيض الثقافة الإسلامية أثناء قراءاتها أو التأريخ لها، فقرؤوها مجتزأة من ملابساتها الاجتماعيّة، أو بعيدا عن تطبيقاتها وممارساتها اليومية الاجتماعيّة، كما أدى ببعض النقاد العرب إلى الانتقاص من الإبداع... العربي»[3]

1- برهان غليون، اغتيال العقل، المركز الثقافي العربي، ط4، 2006، ص280.

2- ينظر، أبو علي أحمد عبد الفتاح محمد، إشكالية التقدم العلمي: دراسة في فلسفة لاري لودان. التفاهم، 2012، مج. 10، ع. 38، ص. 305.

3- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، ص26.

إن المعارف في جانبها الفكري محققة بالفعل بعد أن تحققت بالقوة في الممارسة الإجرائية.وإذا كان حديثنا هنا هو الكشف عن الخلفيات الإبستمولوجية وتأصيلها للعلاقة بين الإجراء والموضوعية فإنه، -وبناء على ما تقدم- لا حاجة للتأكيد بأن الإجراء شرط أساس سابق على المعرفة في الوجود، في العلم والفن على السواء، هذه الممارسة الإجرائية التي ترتبط ابتداء بالعمل بالمعنى الذي يطرح الفكر الماركسي على اعتبار أن الإنسان «كائن عامل منتج وعملية الراعي الهادف هو حقيقته وهو مصدر كل صور ثقافته، فنية وفكرية وتطبيقية و علمية، فالفكر العلمي يحدد «الجوهر الإنساني» أو «الطبيعة الإنسانية» بتفاعل الإنسان مع الطبيعة وسعيه إلى السيطرة عليها وإخضاعها بتوجيه قواها ومواردها لصالح وجوده و أداته في كل ذلك هي عمله»[1]. إن العمل بهذا المعنى هو عمل مادي، والدافع إليه في مبتدأ الأمر هو دافع غريزي يشترك فيه الإنسان مع غيره من الحيوانات؛ لأنه محاولة بدائية لتحقيق ضرورات سبل العيش وتكييف الطبيعة لصالحه وهذا لا يتم دون فكر ولا ممارسة، غير أنه «وفي الوقت الذي يغير فيه الإنسان بالعمل الطبيعة ويكيفها حسب أهدافه، فإنه يخلق طبيعة ثانية، طبيعة إنسانية، هي طبيعته.»[2] فلقد تكونت بفعل هذا الإجراء للإنسان خصائصه ونمت قدراته وزادت قوته وتفجرت إمكاناته؛ أي أن العمل في صورته الإجرائية - باعتباره ممارسة يومية- هو الذي حقق للإنسان الانتقال المهم والضروري من الطبيعة إلى الثقافة، من الغريزة إلى التعقل، من الأداء إلى الاكتشاف، وهذه نقطة تحول مهمة وفارقة في حياة الإنسان، وفي طريقة تفكيره وعمله، لأنه بها يحقق اكتشاف نفسه وتعرفه على ذاته ومقدراته؛ عندما تتحول العلاقة بين العمل ومنتجاته إلى علاقة جدلية في شكل حركة متأرجحة نقطة انطلاقها الأولى العمل إجرائيا باتجاه منتجاته المادية والمعنوية أو عائداته المعنوية. وقد كشفت الفلسفة عن ذلك حين قالت: «أول الفكر آخر العمل وأول العمل آخر الفكر» أي هناك علاقة جدلية بين النظري –المعرفة- والتطبيقي-الإجراء-؛ إذن ثمة علاقة دائمة مستمرة بين الإجراء والفكر، بين الممارسة والنظرية، هذه العلاقة غنية بالتوتر والدينامية والحركية والتفاعل الجدلي، وفي مجال العلوم الإنسانية تؤكد المرجعيات الفلسفية أن تقصي الإجراء هو ما يثبت صحة الفكر ولكن لا يجزم بموضوعيته. بخلاف المعارف العلمية التجريبية حيث يكون الإجراء دليل يقيني على موضوعية المعرفة.

1- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، دار التنوير، القاهرة، ط1، 2013، ص05.

2- المرجع نفسه، ص06.

خلاصة القول: العلوم الإنسانية تختلف جذريًّا عن العلوم الطبيعة، إن هذه الأخيرة تسمح بتطبيق المنهج التجريبي عليها بحضور موضوعية ظاهرة مقيسة، خاصة عند قياسها في المادة الجامدة، لكنها تصطدم بصخرة صماء حين تتعامل مع العلوم الإنسانية، لأنها أشد تعقيدا عما وجدته الفلسفة في المعارف الطبيعية، إنها متداخلة بحيث لا يمكن أن ينفرد علم واحد بدراستها، فالإنسان موضوع لدراسة علوم كثيرة العلوم التجريبية واحدة منها، يضاف إليها علوم أخرى تدرس النشاط الإنساني وردود أفعاله، وتأثير ذلك على حياته في حاضره ومستقبله، دون أن تنسى ماضيه، والنتائج المسجلة مختلفة بين علم وأخر. يقول كلود ليفي ستروس: «يصادر كل بحث علمي ثنائية الملاحظ والموضوع، ففي العلوم الإنسانية يلعب الإنسان بدور الملاحظ، بينما يعتبر العالم بمثابة الموضوع إن المجال الذي يتم فيه التحقق من هذه الثنائية ليس لها حدودا بدون شك...إذا كانت العلوم الاجتماعيّة والإنسانية علوما بالفعل، فينبغي عليها أن تحافظ على هذه الثنائية، وأن تعمل على نقلها داخل الإنسان وبذلك ترسخ القطيعة التي تفصل بين الإنسان الملاحظ، والإنسان أو الناس الملاحظين. ولكن ينبغي لهذه العلوم ألا تتجاوز احترام مبدأ الثنائية، لأنها إن هي أرادت أن تتخذ من العلوم الحقة والطبيعية نموذجا لها، فلا ينبغي أن تتخذ الناس الذين تلاحظهم موضوعا لتجربتها وحسب، بل ينبغي أيضًا ألا يشعرَ هؤلاء الناس بأنهم موضوعات للتجربة، وإلا غير حضور وعيهم مسار التجربة بطريقة غير مرئية. وهكذا يبدو أن الوعي هو بمثابة العدو الخفي لعلوم الإنسان، إنه وعي عفوي يتخذ مظهرين: أحدهما يرتبط بالموضوع الملاحظة وثانيهما يرتبط بالفكر، أي بالوعي المفكر أو وعي الوعي لدى العال»[1].

ومنه ندرك أن العلوم الإنسانية تستعصي على الموضوعية وإذا أرادت أن تكون شبيه العلوم الأخرى فعليها المحافظة على شرط الموضوعية، وهذا ما أكدت الدلائل على استحالته من خلال البحث في الخلفيات الإبستيمية وهذا ما نحاول تتبعه من خلال التطرق لثلاثة علوم إنسانية، علم التاريخ والأدب والفن.

أولًا: الفن.

تموضُع محتوى الفن والخلفيات المعرفية المشكلة له:

الفن إكسير العلوم الإنسانية وحجر الفلاسفة الذي يضمن لشاربه شبابه الأبدي، اِقترن عبر مختلف العصور بالبيئة الطبيعية وبالحياة الدينية والاجتماعيّة، يعبر الإنسان من

1- Levi -Strauss. Anthropologie structurale. Ed. plon 1973.p.343.

خلاله عما يختلج في نفسه اتجاه ما يحيط به بصورة فريدة مباشرة وغير مباشرة فيها من الجمال المختزن والإيحاء المخفي ما يشعر متلقيه بالنشوة الصوفية بما فيها من ابتهاج غامر مؤدٍ إلى غياب العقل عن إدراك ما حوله، والحيرة بما فيها من ارْتِباك وتردُّد واضطراب سببه سؤال وجودي ملح كيف استطاع هذا الفنان أن يعبر بهذه الصورة الجميلة الملونة فيما يعجز غيره؟

والفن - في العلوم الإنسانية - نمط فريد في التعبير عن الحياة، فإذا كانت اللغة العادية اليومية التي تستخدم في التواصل تعبيرا مباشرا، فإن اللغة الفنية تعبير غير مباشر لاعتمادها على التخييل، «فالفن تعبير عن الأفكار والانفعالات من خلال إبداع بعض الخصائص الجمالية المحددة وبواسطة لغة بصرية.»[1]

لقد تنوعت أشكال التعبير الإنساني، التي عرفها الإنسان منذ بداية خلقه، وعبر التاريخ الطويل الذي مر عليه، والظروف المختلفة التي عاشها، ولذلك نظر إليه «تياس إليوت» على أنه تنظيم غير شخصي، وترتيب المواد التي تؤلفه وقد عبر عن هذا المعنى الفنان الفرنسي «لجيه بقوله عن إحدى لوحاته: « موضوع اللوحة بالنسبة لي ليس إلا عذرًا أنتحله من أجل ابتداع مجموعة من الأشكال والألوان التي تعبر عن مشاعري، بغض النظر عن الحقيقة الماثلة في الموضوع الخارجي. وبهذا يكون الفن هو الشكل الفني والعمل الفني في ذاته دون النظر لما هو خارج نطاق ما وجد فيه أي أن الفن لا ينبغي مقارنته كتجربة جمالية بعالم الموضوعات الطبيعية»[2]، لهذا يبدو صعبًا التفسير الشامل للفن الذي يبدو أنه ظاهرة لها القدرة على الحضور المؤثر في الفنان والمتلقي، فما الدلالة الإجرائية للفن وكيف أصلت له الخلفيات الفلسفية التي تناولته تعريفا؟

يعطي لنا الكاتب الروسي «تولستوي» وصفًا فلسفيًّا عميقًا للفن محددًا العلاقة المتبادلة التي تنشأ بين الفنان والمتلقي «الفن نشاط إنساني يعبر من خلاله الفنان عن خبرة عاطفية معينة، فتنتقل للآخرين شعوريا باستخدام الإشارات»[3] أي أن الفن أداة اتصال بين الناس لنقل الخبرات العاطفية. ولا يخرج المفكر الألماني «كاسيرر» عن هذا القول حين يرجع الفن إلى «النشاط الذي في مظهره التكاملي بوصفه نشاطا حضاريا لا

1- ينظر، سعيد حمدي القطان، مدونة فنون بصرية. ttps: //selkattan.blogspot.com/2013-11-11-archive.html

2- ينظر، محسن محمد عطية. أفاق جديدة للفن، دار المعارف، مصر، ط1، 1995، ص 165، 166.

3- المرجع نفسه، ص 168.

يقتصر على نسخ الواقع أو محاكاة الطبيعة، بل يقوم أصلا على تمثيل الواقع في صورة مركزة لأن إدراك الأشكال الخالصة للأشياء ليس منحة طبيعية أو هبة فطرية، بل هو درس نتلقاه على أيدي كبار الفنانين»[1]يقر كاسيرر أنّ الخبرة الفنية مكتنزة بالإمكانيات الفردية اللامتناهية التي لا يمكن أن تتحقق في مجال التجربة الحسية العادية، وأما في العمل الفني، فإنها تستحيل إلى وقائع.

وبهذا فالخلفيات الإبستيمية تؤكد أن الفن مظهر حضاري يعبر عن وعي إنساني يسعى لإظهار الحقيقة الخارجية من خلال عمل داخلي.

ثانيًا: الأدب

الإبستمولوجيا وهوية الضابط الفكري للأدب والنقد.

المعرفة الفلسفية هي علم القوانين العامة للوجود تتناول كل ما تعلق بالطبيعة والمجتمع والإنسان وطرق تفكيره وعملية اكتسابه للمعرفة[2]، فإذا كان الأديب أو الناقد يريد أن يبني نسقًا معرفيًّا يؤطر حدود تفكيره ويوجه إبداعه فعليه أن يقف عند الفلسفة، لأنّ الأديب ما يتحكم فيه عادة هي سلوكيات إنسانية لا يمكن السيطرة عليها كالخيال والعاطفة، وعندما نستقرئ التاريخ أول من يصادفنا من الفلاسفة أفلاطون صاحب مثالية المدينة الفاضلة الذي درس الخلفيات المعرفية للشعر وبين أن هذا الأخير ليس حقًا نرجع إليه في ميدان المعرفة، وفي ميدان الأخلاق؛ لأنه يغذي العواطف الضارة، ثم عقبه تلميذه أرسطو فجاء بنظرية «التطهير» لتكون تبريرًا أخلاقيًّا يرد على أفلاطون، ويقر بأن الشعر مفيد نافع.[3] ومسيرة الأدب كظاهرة إنسانية بدأت متصلة بالجزئيات كالبيت في الشعر والسطر والجملة في النثر وما يتصل بهما من بلاغة وقوانين الصياغة؛ والفلسفة اليونانية شغلت كثيرا الناس بالكليات والجزئيات على نحو ما نجده في المنطق الأرسطي الذي يعبر عن الصياغة بكلية أي لا علم إلا بالكليات، والفلسفة الرواقية التي تؤمن بالقضايا أي لا علم إلا بما هو جزئي مشخص.[4] إذا لقد كان للفلسفة كخلفية معرفية مرجعية حضورًا لافتا في

1- Cassirer Ernst, essai sur l’homme, éd de minuit, paris, 1975, p 195.

2- ينظر، روزنتال، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1974، ص 309.

3- أرسطوطاليس، فن الشعر، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة بيروت، ط2، 1973، ص 18.

4- ينظر، أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة –مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة-، منشورات الاختلاف، دار العربية للعلوم بيروت، ط1، 2005، ص 32.

التطور الفكري والثقافية لصياغة نظريات كبرى أثرت في الأدب والنقد وسنحاول ونحن نبحث عن هذه المرجعيات التركيز على الأدب الحديث والمعاصر؛ لأن النشاط المعرفي في هذه الحقبة أوضح وأنشط لاتساع المعرفة وانفتاح النشاط الأدبي والنقدي العربي على الثقافة الغربية خصوصا بعد عصر النهضة والتنوير.

منذ القديم أي من العصور القديمة والوسيطة سيطرت النزعة العقلية على الفن والأدب، واستطاعت الفلسفة الأرسطية السيطرة على الفنون الإنسانية حتى عصر النهضة عند ظهور وتشكل النزعة الكلاسيكية ذات التوجه اليوناني اللاتيني خلال القرن السابع عشر وبداية الثامن عشر، والتي أعلنت ولاءها لفلسفة ديكارت ونقد باولو وقد تعمقت هذه النزعة في السيطرة على التوجه الأدبي بتوجيهه نحو النزعة العقلية، وتخضع الذوق والجمال إلى نظرتها وكان من أبرز شعاراتها ما رفعته جماعة «البلياد» بزعامة «رونسار» حين أعلنت أنه يجب على الأدباء الناشئين أن يتمرسوا بشعر قدماء اليونان واللاتين من أجل بلوغ الإبداع الحقيق[1]، ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت المدرسة الرومانسية تسيطر على الحياة الأدبية وترفع شعارًا مضادًا للكلاسيكية ترفع من خلاله من شأن الخيال وحرية الإبداع وإعلان الحرب علة العقلانية متأثرة بفلسفة «كانط» الذي بين أن العقل يقوى على تفسير العالم المادي وفض أسراره وحجبه، إلا أنه أداة فاشلة لفهم الروح والنفس والانفعال والعواطف، وهو في هذا متأثر بفلسفة الفيلسوف الفرنسي «جون جاك روسو» الذي كان يصغي إلى العفوية في تقبل مظاهر الوجود ويكرس العاطفة، وعاد إلى الطبيعة وامتزج بها ودعا إلى التعبير عن رعشتها وسكناتها[2]، ولقد سار اتجاه أدبي بأكمله وراء أراء هذا الفيلسوف حيث» حمل الرمانسيون مبادئ روسو في تمجيد الفرد والطبيعة والعاطفة، وفي رفض العبودية الاجتماعيّة والقسر الفكري، ومن هنا كان رفضهم للشكلية الذهنية وللذهنية وللسكونية الكلاسيكية، وإحيائهم للشعر الغنائي وتحطيم نظرية الأنواع الأدبية»[3].

وجاء العصر الحديث بالتطور العلمي واهتمام العالم بالعلوم الطبيعية، فتأثر الأدب بدوره بالوافد الجديد من النظريات المعرفية واتجه الأدب والنقد إلى الأدب الملتزم

1- محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، مطبعة النهضة، القاهرة، ص288.

2- إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع بيروت، ط2، 1983، ص 20.

3- المرجع نفسه، ص10.

الذي سيترعرع في أحضان توجه معرفي جديد هو الواقعية، ولأن كل مذهب صادر عن فلسفة معينة هي التي تسند خلفياته المرجعية فقد تأثرت الواقعية بالفلسفة الوضعية الاجتماعيّة التي تبحث في القوانين الكامنة وراء الوقائع والمعطيات مما جعل الأديب الفرنسي «إيبوليت أدولف تين» يتبنى النهج التاريخي النصاني ويقول بالنص الوثيقة، أي النص الذي يدرس في إطار الوثيقة المرجعية التي تحيل على المرسل، وقد تأثر «تين» في هذا بالفيلسوف «هيجل» الذي دعا إلى دراسة الأدب وفق معايير الجنس والزمن والبيئة، حيث يقول: «ينتمي كل عمل فني إلى عصر وإلى شعب وإلى بيئة، ويتعالق مع بعض التمثلات والغايات التاريخية وغيرها، بحيث إن كل من يتوجه إلى دراسة الفن ملزم بامتلاك معارف تاريخية كثيرة وجدت خاصة متآنية، باعتبار أن الطبيعة الفردية للعمل الفني تشتمل على تفاصيل جد خاصة لا يمكن فهمه وتأويله بدونها». أما الجنس «فيقصد به «تين» الفطرة الموروثة في الأمة، إذ لكل أمة منحدرة من جنس معين خصائصها الفطرية التي يشترك فيها السلف والخلف دون استثناء» وأما البيئة فيقصد بها «الوسط الجغرافي والمكاني الذي ينشأ فيه أفراد الأمة نشوءًا يعدهم ليمارسوا حياة مشتركة في العادات و الأخلاق والروح الاجتماعيّة»، في حين يدل مفهوم العصر أو الزمن على «الظروف السياسية والثقافية والفنية والدينية»، ويدل الزمن إجمالًا على السلطة التي تمارسها النماذج القديمة على آثار وأعمال راهنة، على أن تأثير هذا العامل –في منظور تين – يظل ضعيفا بالقياس إلى أثر الجنس والبيئة.[1]

وفي بداية القرن العشرين حدث تحول هائل في النقد والأدب حيث تحول من الاهتمام بالسياق الذي فرضته المذاهب الأدبية إلى الاهتمام بالنسق الذي فرضه التطور العلمي في مجال العلوم التجريبية، وقد بدأ هذا المشروع النقدي مع العلم «فردينا ندي سوسير» متأثر بما قدمه الفيلسوف «جون لوك» عند إبرازه لأهمية الحواس في الإدراك، وكانت بداية توجه النقد الأدبي نحو التجريب «إن المذهب التجريبي الذي تبنته الدراسات اللغوية كان الجسر الذي عبر النقد الأدبي ليحقق علميته»[2] وظهر هذا التوجه المعرفي الجديد فيما عرف بالدراسات اللغوية البنيوية، التي اهتمت بتحديد العناصر النوعية التي تجعل من عمل ما عملا أدبيا في مقدمتها اللغة كبنية عضوية صغرى مكونة للعمل الأدبي، وتبعا لهذا التفسير الجديد لوظيفة اللغة، دفعت المعرفة بالفيلسوف «مارتين هديجر» «إلى

1- ينظر، محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط5، 2005، ص142-139.

2- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، 1998، ص 180.

إثارة تساؤلات منها ما الذي يسبق الآخر الكينونة أم اللغة؟ ليخلص إلى أن اللغة والتفكير يكشفان عن الكينونة التي تحتاج إلى اللغة لتعبر عنها بسبب افتقارها إلى الوجود المادي المحسوس.»[1]

واستمر النشاط الفلسفي في استثمار المنهج التجريبي لدراسة اللغة على يد كبار الفلاسفة مثل: «هيوم، ديكارت، وسبينوزا» حتى جاء الشكلانيون الروس حيث تعاملوا مع اللغة كنظام خاضع للتجريب، وأمام عجز اللغة كنظام نسقي في الكشف عن دلالة النصوص ظهرت البنيوية التكوينية ذات التوجه اليساري متأثرة بالماركسية القائلة بأن «الفن هو مرآة الحياة الاجتماعيّة» أي أن الفن بنية فوقية خاضعة لحتمية البنية التحتية، وبالتالي فالأدب مثلا ما هو إلا انعكاس للحياة المادية والاقتصادية، ثم تبلورت هذه النظرة مع الفيلسوف «لوسيانغولد مان» الذي قال: أن الأعمال الأدبية لا تعبر عن الأفراد بقدر ما تعبر عن الوعي الطبقي للمجتمع في حركة التاريخ الاجتماعي[2]، والأكيد أن البنيوية ما كانت لتسيطر على الحياة الأدبية والنقدية إلى اليوم لولا أنها «تستند على أساس فلسفي عجل في اكتمال مشروعها البحثي» إن البنيوية كانت لها جذور فلسفية أقدم بكثير من العصر الذي ظهرت فيه – وأهم هذه الجذور هي فلسفة كانط فالبنائية مثل فلسفة كانط تبحث عن الأساس الشامل اللازماني الذي ترتكز عليه مظاهر التجربة وتؤكد بوجود نسق أساسي ترتكز عليه المظاهر الخارجية للتاريخ[3] 47

وخلاصة القول أن الأدب كعلم إنساني لم يخرج على سنة باقي المعارف الإنسانية في خضوعه للنظريات النقدية والفنية التي تأسست، وأطرت خلفياتها الإبستيمولوجية الفلسفة وأمدتها بالتصورات التي حققت وجودها وفرضته كعلم لا يمكن الاستغناء عنه لفهم الحياة والإنسان.

1- عبد العزيز حمودة، المرجع السابق، ص 222.

2- شحيد جمال، البنيوية التكوينية، دراسة في منهج لوسيان غولدمان، دار التكوين دمشق، ط1، 2013، ص 14.

3- ينظر، بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز العربي الثقافي بيروت، ط1، 2001، ص54.

ثالثًا: علم التاريخ

الخلفيات المعرفية لعلم التاريخ وحضور فلسفته

التاريخ علم إنساني عريق عرفه ابن خلدون بقوله: «إنّ فنّ التّاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشدّ إليه الركائب والرحال...إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسّوابق من القرون... وفي باطنه نظر وتحقيق، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيّات الوقائع وأسبابها عميق» وهذا التعريف يشير إلى ارتباطه في عمقه وحقيقته بالفلسفة وليس فقط بكونه تتبع لتاريخ الفكر البشري وتقلُّباته، بل من حيث هو فلسفة التاريخ؛ أي من وظائفه التفكير في تطوُّر التاريخ وحركته ومحاولة البحث عن القوانين التي تتحكم في هذا التطوُّر أو ذاك وإلى هذا يشير الكاتب مصطفى النشار في تعريفه: «التاريخ اصطلاح برّاق نشير به إلى الأحداث التي حدثت على مدى الحياة البشرية على كوكب الأرض»[1]، وذلك بصرف النّظر عن تفاوت النّظرة إلى تلك الأحداث بين تقدير وتوهين، ذلك أن نظرة التوهين التي ينظر بها البعض إلى التاريخ تدلّ على تشوّش مقاربتهم لسيرورة الزمن وتقسيماته بين الماضي والحاضر والمستقبل، وللعلاقة التي تربط هذه الأقسام ببعضها، ذلك أنّ وعي الإنسان لحاضره لا ينفكّ عن وعيه بأحداث الماضي، وهي بدورها لا تنفكّ عن أحداث المستقبل، ويضيف «النشّار» إلى عناصر تعريف التّاريخ خاصّية «توقع المستقبل»[2].

فالتاريخ ليس فقط عملية تدوين وتوثيق مجموعة الأحداث التي حصلت في الماضي من المؤرخين، بل هو أيضًا توقّعٌ للمستقبل بالاستفادة من تلك المعلومات المدوّنة. « فالتاريخ ذاته ليس رصدًا ميتًا لأحداث الزمن الماضي عبر مسارها التاريخين؛ بل يرجع إلى ظروفها التاريخية وتعبيرها عن روح العصر؛ بل هي معرفة التجارب البشرية الفردية والاجتماعيّة والتاريخية التي خرجت منها نعم نحن لا نجزم بأن التاريخ هو فلسفة لأن المؤرخ يختلف عن الفيلسوف» فهو لا يبحث في الأسباب القريبة والمباشرة، إنما يحاول الوصول إلى العلّة الكليّة التي تفسّر الظاهرة موضوع التأمّل. وإذا احتسبنا أنّ التّاريخ هو العلم الذي يدرس الأحداث، والظواهر الإنسانيّة ليسجّلها وفق معايير الدّقة والنّزاهة

1- النشار، مصطفى، فلسفة التاريخ، إصدارات سلسلة الشباب، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة: ط12004. ص9.

2- المرجع نفسه، ص11.

ويحاول تفسيرها وربطها بأسبابها، فإنّ فلسفة التّاريخ هي محاولة فهم سيرورة الأحداث التّاريخيّة للإنسانيّة عمومًا من أجل الوصول إلى محرّكها وإلى علّتها الكليّة، واستخلاص القواعد العامّة أو السنن التي يسير بموجبها تاريخ الإنسانيّة.» لكن التقارب بينهما يحصل فيما يعرف بفلسفة التاريخ فتاريخ الفلسفة هو تاريخ الروح البشري في التصدي للواقع عبر التاريخ؛ لذلك تشكل نوعان من تاريخ الفلسفة؛ الأول هو التتبع الكمي لتاريخ الأفكار بلا خلفيات معرفية واضحة، والثاني العمل للدخول في أعماق التاريخ والغوص فيما وراء الأفكار لمعرفة دلالاتها على عصورها وظروف نشأتها والتجارب التي وراءها، وصلتها بالمرحلة التي قبلها وتمهيدها للمرحلة التي بعدها.

وهنا عند تداخل التاريخ بفلسفة التاريخ يظهر السؤال محل البحث وهو ما هي الخلفيات الفلسفية التي يستند إليها التاريخ عند تناوله لمشكلة سيرورة تاريخ الإنسان ونشاطه في الحرب والسلم في الحل والترحال، وقد ظهر هذا السؤال «بعد انهيار نظرية الوجود الإغريقية، ومن ثم انهيار النظرية الكلاسيكية عن الإنسان»[1] وجوابه في سؤال داخلي آخر هل بالإمكان بناء أنثروبولوجيا فلسفية جديدة؟ تطرح بدورها سؤالا فلسفيا من هو الإنسان؟

لقد انقسمت المعرفة إلى فكر «الوجود» وفكر «الصيرورة» هو انقسام حصل داخل اللوغوس الإغريقي منذ ما قبل سقراط، الأمر الذي جعل الفكر الفلسفي اليوناني يتأرجح بين أحد طرفي المعادلة داخل ثنائية الوجود والصيرورة، الوحدة والكثرة، وغيرها من الثنائيات التقابلة التي شكلت النظرية الأساسية للفلسفة اليونانية ومنها إلى الفلسفة الغربية على امتداد عهود طويلة. وما قام به «أفلاطون» في هذا الصدد أنه «أول من تعرف على الوجود لا كشكل لموجود خاص، وإنما الوجود كمشكلة» في كون السؤال الأساسي لا يتعلق بكيفية انتظام الوجود أو معرفة تكونه وبنيته بقدر ما يتعلق الأمر بالوجود كمفهوم وبمغزى هذا المفهوم[2].

1- ينظر بالعالية دومة ميلود، التاريخ كشكل رمزي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعيّة، جامعة وهران، العدد8 جانفي 2018.

2- ينظر، بلعالية دومة ميلود، المرجع السابق.

وظل الصراع حول هذه الثنائية حتى جاء كانط الذي رد هذا الخلاف بين الثنائيتين إلى خلاف منهاجي «لم يعد ينظر إلى هذا الانقسام كما لو كان ميتافيزيقيا أو أنطولوجيا بقدر ما صار ينظر إليه على أساس منهاجي فقط، ومن ثم اعتبار مبدأي الوجود والصيرورة بمثابة مقولتين متلازمتين للنشاط العلمي، فلا تعارض فعلي بينهما في الفلسفة الكانطية، لأنهما لا يعبران عن اختلاف أنطولوجيّ أساسي، أي اختلاف في طبيعة الأشياء في ذاتها وماهيتها. إنهما يمثلان بالأحرى مصلحة مزدوجة للعقل الإنساني. فلا يمكن للمعرفة الإنسانية الاهتداء إلى غايتها إلا إذا اتبعت الطريقين معا، واعتنت بهما معا. فعلى المعرفة أن تعمل وفقا لمبدأين «ناظمين» مختلفين: مبدأ المشابهة ومبدأ الاختلاف، مبدأ التجانس ومبدأ التنوع.»

ضمن حدود هذه النظرة التي أشار إليها كانط «ينظر إلى التاريخ من حيث أنه عالم التنوع الذي يسم كل أشكال التجربة الإنسانية، إلا أنه لا يمكن أن يكون مفهوما ومؤولا بلغة التغير المحض، أو التنوع اللانهائي لأحداثه إذا لم يفترض الفكر مسبقًا ضربًا من النسقية الصورية أو الوحدة الشكلية تكون علامة على مفهوم الوجود التاريخي ذاته. ومع ذلك «فال ينبغي أن ننظر إلى هذه الوحدة كما لو كانت تتمتع بالحضور منذ بداية حركة هذا الوجود، بل إن وحدة هذا الوجود ليست ممكنة إلا إذا اعتبرناها هدفا نسعى لبلوغه»، وبهذا الاعتبار يستبعد «كاسيرر» التصور الساذج لعالقة الفكر بالوجود كما تفصح عنه نظرية الانعكاس أي ذلك التصور الذي يعد الفكر كما لو كان مجرد مرآة عاكسة لظواهر الوجود، سواء كانت ظواهر الوجود الطبيعي الفيزيائي أو ظواهر الوجود الإنساني التاريخي، بل إن العلم الطبيعي نفسه يدحض مثل هذه النظرية الساذجة، إن المعرفة التاريخية، مثلها مثل أي معرفة إنسانية أخرى، نشاط فكري لا يمكن أن يشذ عن نظام الوساطة الرمزية من حيث هي وساطة يبلغ من خلالها الإنسان معرفة بذاته ككائن مبدع أو بالأحرى «كحيوان رامز». ولكن كيف يمكن اعتبار التاريخ نسقا رمزيا؟ وهل يمكن لخاصية التنوع التاريخي لأشكال التجربة الإنسانية أن تحول بين المعرفة التاريخية وبين المعرفة النسقية الرمزية؟ يجيب «كاسيرر» عن هذه المفارقة المنهجية بقوله «أن عالم التاريخ هو عالم ينطوي، بنفس القدر، على مبدأ جوهري أو عنصر وجود ليس له، مع ذلك، نفس المعنى الذي نجده في عالم الفيزياء. فبدون هذا العنصر لا يمكننا الحديث عن التاريخ كنسق»[1].

1- ينظر، بلعالية دومة ميلود، المرجع السابق.

لقد بدا التاريخ مع «يوهان جوتفريد هيردر» كما لو كان شيئًا يعج بالحياة، وبالرغم من أنه لم يتمكن من إقامة نسق موحد وكامل في ذاته للتاريخ، إلا أنه أحدث ثورة في علم التاريخ أشبه بالثورة الكوبرنيكية التي أحدثها كانط في الفلسفة، «فكما أراد كانط أن يعد كوبرنيك الفلسفة، كذلك يمكن أن نطلق على 'هردير' لقب» كوبرنيك التاريخ فقد رأى تفسير التاريخ اعتمادا على طبيعة الإنسان وحدها، وتصوره شيئا يكشف فيه. كان يكفي مجرد هذا التصور لقلب رؤيتنا لحقيقة الطبيعة لكشف النقاب عن الإنسانية» والتاريخ معا، إذ لم يعد ينظر للإنسان بأن له تاريخ لأن ليس له طبيعة، بل «للإنسان تاريخ لأن له طبيعة»، وهذا هو الشعار الذي سيرفعه الكثير من المؤرخين المحدثين، حيث كانوا يأملون جميعًا في اكتشاف، تحت التدفق الزمني وخلف تعدد أشكال الحياة الإنسانية، الملامح الثابتة للطبيعة البشرية».[1]

إن نظرة «هردر»، ومن ثم في النزعة الرومانتيكية التي تبنت أفكاره في علم التاريخ هي التي ستسطر على نظرية الأفكار التاريخية في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، بسبب التأثير الذي مارسته على كثيرمن المؤرخين الكبار أمثال «رانكه» و«نيبور» و«هبمولدت»، وذلك على الرغم من تباين أطروحاتهم فيما يتعلق بمنهج الكتابة التاريخية ومبادئها.

وتقوم فكرة فلسفة التاريخ عند «هيردر» على فكرتين أساسيتين: أولا: «فلسفة تاريخ تهتم بالتكوين الإنساني» وثانيا: «أفكار عن فلسفة التاريخ الإنساني» إن فلسفة هيردر في التاريخ فريدة من نوعها بالنظر لتطويره تصورًا غائيًا للتاريخ بوصفه إدراكًا تقدميًا لـ «العقل» و«الإنسانية» وهو مفهومٌ مهّد لظهور هيجل وأثر به تأثيرًا قويًا بجانب آخرين، وعلى كل حال فإن هذا التصور ملتبس جدًا عند التمعّن فيه، وليس من منجزات هيردر الهامّة في هذا الحقل؛ ولعل منجّز هيردر الأكثر أهمية هو تطويره للأطروحة السالف ذكرها والتي عارض بها بعض فلاسفة التنوير كهيوم وفولتير، وهو وجود الاختلافات الجذرية في المفاهيم بين الحقب التاريخية والثقافات والأفراد، فمفاهيم الناس ومعتقداتهم وقيمهم وإحساساتهم وغيرها من أمور، تختلف بصورة عميقة بين حقبة زمنية وأخرى، وبين ثقافة وأخرى. تسود هذه الأطروحة في «حول تغيّر الذائقة» 1766 وتستمر طوال مشوار هيردر الفكري، وأثرت بشكل بالغ فيمن تبعه كالأخويّن شليجل وشلايرماخر وهيجل ونتشه

1- بلعالية دومة ميلود، المرجع السابق.

ودلتاي[1].

ونكتفي بهذه النظرة الموجزة التي تشير إلى أهم خلفية مرجعية أصلت لعلم التاريخ وكونت مرجعيته الفلسفية وشكلت نظرة المؤرخين للأحداث وساهمت في بناء فلسفة التاريخ.

1- مايكل فورستر، يوهان جوتفريد فون هيردر، تر: طريف بن عيد السليطي، موقع حكمة، // :https hekmah.org/هيردر/

خاتمة

إنَّ البحثَ عن الخلفيات المعرفيّة الساندة للعلوم الإنسانية عمومًا وعلم التاريخ والأدب والفن خصوصًا تحتلُ مكانة مهمة ضمن النسق المعرفي الذي جسدته بامتياز المرجعيات الفلسفية لهذه المعارف، وتكمن أهمية البحث في بيان جوهر الإنسان ذاته ضمن شروط وجوده الأنطولوجي الطبيعي. إنه بحث لمدى تأثير الفلسفة بمعارفها المختلفة في فهم الإنسان لوجوده ككائن يمتلك ملكة لا تملكها غيره من الموجودات، وعمق فهمه لطبيعة وجوده تنقله من مجال المعرفة إلى مجال الحضارة.

إنَّ أية معرفة نظرية أو إجرائية نابعة من خلفية مرجعية فلسفية قادرة على تعميق فهم الإنسان لمعارفه، ولذاته وهي كفيلة بضبط مساره وتوجهه في بناء تصور وجودي يحقق له استقلاليته ككائن شعاره أنا أفكر إذا أنا موجود تأكيدًا لأهمية التفكير في الحياة.

ومنه، يتضح أنَّ:

- الخلفيات المعرفية الإبستمولوجية تتبعها في العلوم الإنسانية يعمق فهم الخلفيات المرجعية التي اعتمدت عليها، ويقوي فهمنا النظري لها، ويثبت نجاعتها الإجرائية.
- تتجاوز معرفة الخلفيات الفلسفية كنه الإدراك العلمي إلى القناعة الوجودية، وتحقق الموضوعية، وصحة الطرح المنهجي.
- تحافظ الخلفيات الفلسفية على بساطة الطرح الموضوعي وتخلصه من التعقيد الدلالي الذي نجده في العلوم الطبيعية والبحوث المادية.
- تسهل الخلفيات المعرفية بأبعادها الفلسفية فهم الواقع الاجتماعي بتعدد أبعاده وفهم الذات الإنسانية، وتثبت فاعليته التوليدية.
- تتناول العلوم الإنسانية بعض القضايا التي تتجاوز الإدراك بسبب بعدها الميتافيزيقي كالأساطير والخرافات مثلا، فتعمل المعارف الفلسفية على تقريب فهمها وإثبات شرعية البحث فيها ونشرها.
- تكشف الخلفيات المعرفية عمومًا والفلسفية خصوصًا على أسرار إقبال المجتمع العلمي على العلوم الإنسانية حتى تزول الفوارق بين العلوم الطبيعية ذات التوجه المادي والعلوم الإنسانية ذات التوجه الاجتماعيّ.

قائمة المصادر والمراجع

- إيليا الحاوي، الرومانسية في الشعر الغربي والعربي، دار الثقافة للنشر والتوزيع بيروت، ط2، 1983.
- أحمد يوسف، الدلالات المفتوحة – مقاربة سيميائية في فلسفة العلامة-، منشورات الاختلاف، دار العربية للعلوم بيروت، ط1، 2005.
- أرسطوطاليس، فن الشعر، تر: عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة بيروت، ط2، 1973.
- بالعالية دومة ميلود، التاريخ كشكل رمزي، مجلة دراسات إنسانية واجتماعيّة، جامعة وهران، العدد8، جانفي 2018.
- برهان غليون، اغتيال العقل، المركز الثقافي العربي، ط4، 2006.
- بشرى موسى صالح، نظرية التلقي، أصول وتطبيقات، المركز العربي الثقافي بيروت، ط1، 2001.
- روزنتال، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1974.
- سعيد حمدي القطان، مدونة فنون بصرية. ttps: //selkattan.blogspot. com/2013-11-11-archive.html
- شحيد جمال، البنيوية التكوينية، دراسة في منهج لوسيانغولدمان، دار التكوين دمشق، ط1، 2013.
- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2.
- طه عبد الرحمن، سؤال الأخلاق - مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية: المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2000.
- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، عالم المعرفة، الكويت، 1998.

- عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظرية الأدب، دار التنوير، القاهرة، ط1، 2013.
- أبو علي أحمد عبد الفتاح محمد، إشكالية التقدم العلمي: دراسة في فلسفة لاري لودان. التفاهم، 2012، مج. 10، ع. 38.
- عماد الحسناوي، التعليم الفلسفي عند كانط، الحوار المتمدن مجلة إلكترونية، العدد 5781 - 2018.
- محسن محمد عطية، أفاق جديدة للفن، دار المعارف، مصر، ط1، 1995.
- محمد مندور، الأدب وفنونه، نهضة مصر للطباعة والنشر، ط5، 2005.
- محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، مطبعة النهضة، القاهرة.
- مايكل فورستر، يوهان جوتفريد فون هيردر، تر: طريف بن عيد السليطي، موقع حكمة، https: //hekmah.org/هيردر/
- النشار، مصطفى، فلسفة التاريخ، إصدارات سلسلة الشباب، شركة الأمل للطباعة والنشر، القاهرة: ط1 2004.
- Cassirer Ernst, essai sur l’homme, éd de minuit, paris, 1975.
- Levi -Strauss. Anthropologie structurale. Ed. plon 1973.

فهرس الموضوعات

م	اسم الباحث	عنوان البحث	الصفحة
1	د. إيناس نظمي الزيناتي	التّفكير النّاقد بين جذوره التّاريخيّة وضوابطه (اللغوية والنّقدية) الحديثة- دراسة تحليليّة مقارنة	7
2	أ. د. يوسف مقران	خمسة أنساق نقدية لتأطير المشكلة المصطلحية في النظريات اللسانية العربية . من تشخيص الواقع إلى إعمال التوقع.	37
3	أ. د. بلقاسم الجطاري أ. عبير البريكي	الأدب الرقمي العربي في محكّ الرصد التجنيسي؛ تأملات ومقارنات	83
4	أ. د. محمد محمد النجار د. أميرة أحمد مصطفى	توظيف الرحلات المعرفية Web Quest في تنمية مهارات التفكير الناقد لطلاب أقسام المكتبات والمعلومات: أنموذجًا مقترحًا	101
5	د. جيهان رشوان	أثر إستراتيجية هوكنز على التحصيل والتفكير الناقد لدي طفل الروضة بالإمارات العربية المتحدة	131
6	أ. زينب جميلي أ. عادل صيد	التربية الإعلامية الرقمية والتفكير الناقد دور مهارات التعلم في عصر التكنولوجيا في تمكين المجتمع الرقمي	169
7	د. محمد خالد محمد الزعبي	دور معلمي المدارس الحكومية في الأردن في تنمية مهارات التفكير الناقد لدى طلبتهم	193
8	د. عئشة مبارك أ. أمل الشحي	التفكير الناقد في منهج التربية الإسلامية - في دولة الإمارات العربية المتحدة - (الصف الثاني عشر أنموذجًا)	231
9	أ. د. أسماء فتحي عبد العزيز شحاته	الذكاء الاصطناعي ومستقبل التفكير الناقد في علم الفقه بين الإمكانات التكنولوجية والضوابط الشرعية	255
10	د. مريم المنصوري	التفكير الناقد وتدريس العلوم الإسلامية	289
11	د. لبنى المفتاحي	مناهج المستشرقين في دراسة الإسلام: قراءة تأويلية	323
12	أ. د. حسيبة حسين	الاستدلال بالمقاصد الشرعية وأثره في الاجتهاد في القضايا المعاصرة	349
13	أ. م. د. رحاب محمود نذير م. د. ميسون يونس محمود	توظيف الذكاء الاصطناعي في خدمة القرآن الكريم والسنة النبوية	377
14	أ. د. إبراهيم رشاد	النقد الفقهي بين التنظير والتطبيق	401

15	د. سُليمان عبد الواحد يوسُف د. أمل محمد غنايم	الإسهامات التطبيقية للتدخل السيكولوجي في تنمية التفكير الناقد: دراسة مقارنة بين البرامج التدريبية والإرشادية في البيئة العربية باستخدام منهجية التحليل البعدي	441
16	د. بلقاسم مارس	المناهج النقديّة وتأثيرها في نظريات العلوم الإنسانيّة قديما وحديثا	471
17	د. عبد الفتاح محفوظ	التفكير الناقد لدى طلاب العلوم الإسلامية ومهارات التعلم في عصر التكنولوجيا	503
18	د. قردان ميلود	الخلفياتُ الإبستمولوجيّة للمناهج النقديّة ودورها الثقافيّ في إثراءِ العلومِ الإنسانيّةِ قديمًا وحديثًا	539
19	أ. شهيدة جبار أ. فايزة صحراوي	مبادئ نمو التفكير الإبداعي من منظور التحليل النفسي	563
20	د. محمد رندي	المناهجُ النقديّةُ الغربيّةُ والشعر العربيّ مِن الشكِ إلى الهدمِ والتقويضِ	599
21	د. مخلوفي اسعيد د. ساعد صباح	صعوبات توظيف مهارات التفكير الناقد في التعلم لدى طلبة المدرسة العليا للأساتذة بقسنطينة بالجزائر	637
22	د. أنس القَرْباص	الاستدلالُ الأصوليُّ بين الاجتهادِ والتقليدِ: دراسةٌ في بيان نقدِ الأصوليينَ للاستدلالِ المنطقيّ الأرسطيّ	681
23	د. عمر بو شنة	صِناعةُ التّفكيرِ النّاقدِ في الدّرسِ اللّغويّ عندَ عبدِ الرحمن الحاج صالح (1927 - 2017م)	709
24	د. لحسن أبو القاسم	توظيف التمثيل في العلوم الإسلامية بين الاجتهاد والجمود	745
25	د. شفاء مأمون ياسين	الضابطُ السياقيُّ في الدراساتِ النحويةِ التراثيّةِ وأثرهُ في التطورِ الدلاليّ وتعيينِ المعنى	777
26	د. يونس الخمليشي	منطق النقد؛ أسسه ومفترضاته وتطبيقاته	807
27	د. عمار حلاسة	تلقي النقد الأدبي العربي المعاصر للنظريات اللسانية والنصية الغربية	833

شارع زعبيل – دبي – الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 97143961777+، فاكس: 97143961314+، ص. ب: 50106
البريد الإلكتروني: info@alwasl.ac.ae
موقع الجامعة: www.alwasl.ac.ae